ابن وائل

مأساة تاريخيَّة نثريَّة ذات ثلاثة فصول يتخلَّلها شعر جاهلي

بقلم الاب شرل ابيلا اليسوعي (فنسنّة)

الفصل الثالث

يمثل المرسح غرفةً في حصن لبني بكر

المشهد الاوَّل

المهلهل وقيس

المهلهل أ للقتل ام للرقِّ اخرجتني ؟

قيس لا لذا ولا لذاك ولكن لاطلاق سبيلك . (يحلّ قيوده) سِرْ سيدي

المهلهل والحقْ بقومك تغلب

المهلهل فوّضَ اليك الحارث حراستي . (بقوة) أرجع اليَّ قيودي

قيس ولكن . . .

المهلهل اتجهل انيَ عديٌّ المهلهلُ ؟ لا . لا يلجأ الى الفرار سيدُ تغلب وخلفُ وائلٍ عليها

قيس مولاي ! . . .

المهلهل لا يُلِحَّ عليَّ بالطلب . أرجع اليَّ قيودي فاني آليت على ألّا يحلّها لي الا بغضُ اعدائي لا قادَ الى الموت او بأس ابطالي فيقذوني ببسالتهم وبطشهم . . . واما ان ارضى انا بالذلّ وافرّ هارباً فيا حبّذا الموت الزؤام ولا هذا العار

اتسألني خليلي عن فرارٍ وعزُّ النفسِ لي فيهِ شعارُ
أأنجو هاربًا فيقالَ عني جبانُ القومِ أنجاهُ الفرارُ
أأنجو هاربًا وانا عديٌّ ابيُّ النفس جلبابي فخارُ
أعِد قيدي فلستُ أريدُ امرًا أتتنيَ منهُ مخزاةٌ وعارُ

قيس (يقيده) انا أُقيّدك طوعاً لامرك ولكن عمّاً قليل يحلُّ اميرنا وثاقك ويقبل يديك

المهلهل ماذا تقول ؟ اميركم الحارث بن عبّاد يحلُّ وثاقي ويقبّل يديَّ ! لقد اعماك الجهل

قيس اميرنا الحارث بن عبّاد واميرنا الهجرس ابن اخيك وائل

المهلهل ابن وائل ! بلغني انهُ وقف على حقيقة نسبه بعد ان كتمتموه اياه زماناً طويلاً فيهِ كان جساسٌ اذاع بيننا موته . . . اين ابن اخي ؟

قيس ترك حيّنا وذهب الى تغلب حيث خالهُ اميركم مُرادهُ الفتك بهِ انتقاماً لدمِ ابيهِ . ثم يعود لانقاذك بجيوش تغلب وأسد

المهلهل نعمَ الولد ولد وائل

قيس لكن لا حاجة الى العنف والقهر . فانَّ قومي ينقادون اليهِ طوعاً . نُوجلهُ الحصن ونساعدهُ على انقاذك

المهلهل أيخون بنو بكر سيدهم ؟

قيس لن نخون الحارث بن عبادٍ . هو سئمَ الحرب ويحب الصلح

المهلهل وجساس ؟

قيس جساس بحث عن حتفه بظلفه . اغتنم فرصة تغيُّب الحارث فبعث يستحث تغلبيين على قتل الهجرس . لكنهما خلّيا عنهُ وقد علما نسبهُ بل ساعداه على جمع شمل بني تغلب واسد

المهلهل قبحاً لجساسٍ من مخاتل مخادع . . .

قيس جساس قد اضجرَتنا مخاتلتهُ . اضجرنا بغيهُ وظلمهُ . فها نحن معاشر ضبيعة ننشقُّ عن بني شيبان

المهلهل الانشقاق في بكر !

قيس هو فيها ان ابت شيبان الّا معاضدة نذلها جساس . خطبتُ في بني ضبيعة واعلمتهم ما اضمرَ امير شيبان . فاضرمتُ لهُ في افئدتهم ناراً من البغض والغيظ . . . قرَّ عيناً سيدي فالحصن حصننا وانت تُحلُّ قيودك لا محالة

المهلهل وهل الحارث عالمٌ بهذا كلهِ ؟

قيس — اتاه ذهاب الهجرس الى حيكم

المهلهل — وتعصُّبكم لابن اخي ؟

قيس — لا علم للحارث بهِ على اننا نطلعهُ على الامر . وان ابى او تردَّد . . .

المهلهل — . . . (يقاطعهُ) مهلًا يا اخا العرب ان ابى الحارث محاربة جساس فاني منكرٌ على الهجرس انقاذي بعونتكم . عارٌ عليهِ الخيانة . عارٌ عليهِ ان يبثَّ في القوم روح العصيان على اميرهم وان فعل فلا اعرفهُ ولا هو من سُلالة وائل وقد كذب دمهُ ومان . . . انا عائد الى سجني

قيس — سيدي !

المهلهل — هوذا اميرك مقبلٌ . قل لهُ ان عديًّا المهلهل لم يكن ليغمسَ يده في الخيانة مع اهل العصيان . انا اسيرُ الحارث فان شاء قتلني او تعبَّدني . وان احبَّ خلَّى سربي وعقد الصلح معي . فالموت والرقّ احبّ لديَّ من الخاتلة والخداع . . .

على ان ليس عدلًا من عديٍّ ... إذا طلب السلامة عن غرورِ
على ان ليس عدلًا من عديٍّ ... اذا ما أوغرت ذات الصدورِ
على ان ليس عدلًا من عديٍّ ... اذا ما دبَّ بغضٌ في الشيرِ

(يخرج المهلهل)

المشهد الثاني

قيس وحدهُ

قيس — اكرِم بعديٍّ المهلهل اميرًا . هو عظيمٌ في الاسر كما كان عظيماً في ساحة الوغى . مثلهُ تكون الامراء والملوك فيحق لها التفاخر بكرم المحتد والصولة (يدخل الحارث)

المشهد الثالث

الحارث قيس

الحارث — ما الخبر عن الهجرس ؟

قيس — لم يَعد بعد من ارسلتهُ في أثرهِ . ولكني اعلم علم اليقين ان الهجرس اذا

ما قصد امرًا فلا يعدلُ عن الانجاز . هو واغرُ الصدر على جساس ولا يعود الّا برأسه

الحارث وان اركن خاله الى الفرار ؟

قيس (وحدهُ) الهرب خليقٌ بالنذل . (الى الحارث) ان فرَّ جساس لحق به الهجرس ولو احتفر نفقًا في الارض او تسلّق سُلّمًا في الجوّ . فمع ابن وائل جيوشٌ عديدة تُنيلهُ ما يتمنَّى

الحارث أفتظن أنهم يفوزون بالنصر ؟

قيس لا اشكّ بذلك وعهدي ببني شيبان جبناء انكالا

الحارث وبنو ضبيعة ؟

قيس بنو ضبيعة . . . ثئة مولاي أمر خطير لا اريد ان اكتمك اياه . فاني على علم من شواعر قومنا . هم خذلوا جسّاسًا فلا يعاونونه

الحارث نعم . وقد علمت أنكم قتلتم نويرة

قيس كيف لا نقتلهُ وقد تواطأ مع جسّاس على قتل الهجرس

الحارث أيكون هذا منكم وانتم من بكر كبني شيبان

قيس بل نحن كلنا في حوزة الهجرس . كلنا في يده . كلنا على جسّاس إلبٌ واحد

الحارث ويلاه ! قد وقع الشقاق في بكر . . . ويلاه

جرَّت علينا النائبات ذيولها حطَّت بنا لواطئ الأقدام
يا آل بكرٍ ما الشقاقُ بنيدكم الّا الشقاء ولوعةَ الاسقام
ان حلَّ هذا الحُلفُ في اسداتكم كنتم لدى الهيجاء غير كرام
وتُركتمُ يومَ الكريهة كُلكم ما بين مصروعٍ وآخرَ دامٍ . . .

. . . ثم كيف تستحلون معاضدة الهجرس عن غير رأيي وانا اميركم .

قيس مولاي يعزّ علينا عصيان امرك ولكن جسّاسًا قد بغى وطغى . لو لم يتبدأ الهجرس بالشر لما بودي بمثله

الحارث افلا وسيلة لاصلاح ذات البين (يفكر)

قيس لا يصلحها الّا عقاب جسّاس او كف الهجرس عن تطلب ثاره ولكن هيهات . . .

الحارث (يبتّ الرأي) حُلّ قيود المهلهل وعلّي به (يخرج قيس)

المشهد الرابع

الحارث وحده جالساً

تنازعت قلبي الاكدار . ووقفت عندها الافكار . أين اوجه آمالي والخطبُ جسيم . احدق بي من كل صوب ويلاه ! (يقف) ايا ال بكر آل قومي أإلى هذا الحدّ بلغ بكم التحاسد والتحزّب حتى تحيّزتم وتفرقتم ؟ أما كفتنا حرب البسوس ؟ اما كفتنا اهوالها حتى توغرت الصدور ؟ اهذه هي ثمرة تعاوننا وانتصارنا عليها ؟ . . . ولكن لا لوم على بني ضبيعة في قتلهم نويرة وقد خان . لا لوم عليهم في معاداة جسّاس . (يجلس) جسّاس اصرّ على ضلاله وتمادى في غيّه غرس الفتنة في القوم وجعل الشقاق بينهم آه

لعن الله قوماً أسروا الحرب بيننا سقونا بها مُرّاً من الشرب آجنا
اذا قلتُ قد افلتُّ من شرّ تغلبٍ لقيت بأخرى عند بكرٍ ضغائنا
وكم مرّةٍ انذرت جساس ناصحاً وما دهره الّا يكون مطاعنا

(يدخل المهلهل)

المشهد الخامس

الحارث والمهلهل

المهلهل امرتَ بحلّ قيودي ؟

الحارث امرتُ

المهلهل ثم ماذا ؟

الحارث إنك يا عديُّ قد اسرفتَ في القتل وادركت ثأرَ وائل سوى ما قتلت من ضبيعة وشيبان

المهلهل نعم . فعلت ذلك اثناء الحرب ولا عيب على من يقتل في الهيجاء اعداء حيّه . اما جسّاس فقد تمادى في جهالته واصرّ على باطله . اثار علينا وعليكم حرب البسوس بقتله اخي كليباً واثلّا . ولم يكتفِ بذلك فبعد ان تحالفنا

وعقدنا الصلح نكث العهدَ وبعث من يقتلني غدراً

الحارث انت تعلم اني انكرت ذلك عليه . . .

المهلهل ثم عمدَ الى الهجرس ابن اخي واراد قتلهُ

الحارث دع عنك ايها الامير تعداد معايب جساس . حديثك الساعةَ مع امير بكر . . لا معهُ (سكوت هنيهة) أتريد عقد الصلح ؟

المهلهل انا اسيرك وتسألني الصلح !

الحارث اطلقتُ اسرَك وخليت سربك ان رضيت بما أريد

المهلهل (يفكر) . . . ما هي شروطكم ؟

الحارث جساس اسيرٌ في حيكم فخلُّوا عنهُ . ثم انَّ الهجرس الآن في حوزتك وقد علمَ وعلمتَ انهُ ابن اخيك فاكففهُ عن اذانا وانهَهُ عن الزحف علينا وعن طلب الثأر بابيه . فقد لعمري أرقتم منَّا الى الآن اضعاف دم وائل . ومن الحيين قد مضى في هذه الحروب من كان بقاؤهم خيراً لنا ولكم

المهلهل . . . انا فاعل . . . واما ان عادت الى عترها لميس وعاد جساس ينذر بقا وينكث كما فعلَ

فلأوردنَّ الخيلَ ماءَ دياركم ولأقضينَّ بفعل ذاك ديوني
ولاقتلنَّ جحاجحاً من بكركم ولأبكينَّ بما جفون عيوني
حتى تظلَّ النائحاتُ بحيكم يندبنكم بتفجعٍ وانينِ

الحارث لم اكن انا يا عديُّ لانكث العهد . وما زحفتُ عليكم آنفاً الَّا لاستدرك هجومكم

المهلهل نعم . ولكن جساس ؟

الحارث ان عاد الى غيه وجنح الى الغدر سلَّمتهُ اليك واعتزلت حربهُ انا وقومي . .

هلمَّ للمصافحة

المهلهل اعطيتك صفقة يميني (يتصافحان)

(يدخل جساس)

الحارث اعطيتك صفقة يميني

المشهد السادس

الحارث المهلهل جساس

جساس ماذا ؟ اميرُ بكر يصافح اخا وائل كاليب !

الحارث جساس !... كيف خلَصْتَ الى الحي ؟

جساس نجوتُ من تغلب...

المهلهل قل : فررتُ

جساس نجوت بسلاحي قبل ان يعتقاوني وأتيت لافتُكَ بالمهلهل (يتبكم) ولم يخالجني الظن انَّ اميري يصافحهُ وهو شرّ اعدائنا

المهلهل أغدرٌ فخساسةٌ ثم وقاحة ؟ مثلكَ يا جساس تبلغُ بهِ الدناءة الى حد الفرار . واماً انا فسل قيساً . سل قومك . يخبروك اني ابيت الهرب وذلّة وقد تهدّدت لي سبلُهُ

جساس (الى الحارث) مهدّها لكَ قيس اللعين وما خلصتُ منهُ اليك الّا حيةً

المهلهل آه ! اوعيك بأسُ ابطال تغلب وارتعدت منهُ فرائصك ! فاركنت الى الفرار آه...

لو ان قومي ادركوك لوجدتم مثل الليوث بستر غير عزبن

...ولكن ما باليد حيلةٌ لمعاقبتك وقد صافحت الامير واخذ عليَّ العهدَ الاكيد ألّا أتبدأكم بالعداوة ... (غير مكترث) فان شئت فاعقد ما عقد

جساس (يتهكّم) حسبُكَ مصافحةُ الامير

الحارث لا عيب في الصلح بعد النصر

جساس (الى الحارث) تمتّع وحدك بالصلح . واماً انا فلا اروم الّا القتال

فاني قد طَرِبْتُ وحان مني طرادُ الخيل عارضةَ الرماحِ

(الى المهلهل)

واني قد جنيت عليك حرباً تُنغِّصُ الشيخَ بالماء القراحِ

تُسعِّرُ نارها وهجاً وجاءت اذا خمدت كيران القصاحِ

وما تنفكُّ ناعيةً تعزّي بما ندَبتْ وتُطنُّ بالنواحِ
فما لي همَّةٌ ارجو اخاها سوى الخَطّيِّ والفرس الوقاحِ

المهلهل (يتهكم) تفاخر تفاخر يا من لجأ الى الفرار خوفاً من بني تغلب!

لئن تكُ يا جبانُ جنيت حرباً تُنيصُ الشيخَ بالماء القراحِ
جمَعْتَ جا يديك على كُليبٍ فلا وكلٌ ولا وشلُ السلاحِ
ولكني الى اللذّاتِ اجري الى الموت المُحيط مع الصباحِ
واني حينَ تشتجرُ العوالي اعيد الرمح في اثر الجراحِ
شديدُ البأس لستُ افرُّ خوفاً نظيرك بل ابوء الى الرماحِ
فاجملُ من حياة الذلّ موتٌ وبعضُ العار لا يمحوه ماحِ

جساس آه تُوغرُ غيظي وتُشعل لهيب غضبي. يا هذا عليك بالكفّ عن التطاول والّا جعلتك في الحال جزرًا لسيفي (يده على سيفه)

المهلهل يحقُّ لنذلٍ مثلك ان ينقضَ ما عقد اميرهُ. يحقُّ لك ان تخرُق حرمة القرى وتُشهر عليَّ السيف وانا ضيفكم لا اسيركم. يحقُّ لك ان تقاتلني وانا أعزلُ لا سلاح لي الّا يدي

جساس على رسلك (ينظر المهلهل الى الحارث)

الحارث (بين الاثنين) قد عيل صبري! من انت يا جساس لتحلَّ وتربطَ في القوم؟ أليس في بكر اميرٌ ليعقد الصلح ويُشهر الحرب كيف شاء؟ انا سيد بكر واميرك. تحالفتُ مع المهلهل. فما عليك الّا الطاعة وايمُ الحق ان حللت ما عقدتُ واشهرت العداوة فلست فقط ممتلًا حربك ولكني مسلِمك الى اعدائك فقد طالما تحمّلنا جورك

جساس انت سيد ضيعة واما شيبان فانما سيدها انا. فانضمَّ اذن بقومك الى تغلبَ ونحن معاشر شيبان اكفاء لكم ولهم:

إنّا على ما كان من حادثٍ لم نَبْدإ القوم بذات العقوقْ
قد جرّبت تغلبُ ارماحنا بالطعن اذ جاروا وخزّ الحلوقْ
لم ينسم ذلك عن بنيهم يوماً ولم يعترفوا بالحقوقْ
وأسعروا للحرب نيرانها للظُلم فينا بادياً والفسوقْ
أليس من اردى كليباً لمَنْ دون كليبٍ منكمُ بالمُطيقْ
مَن شرع العدوانَ في وائلٍ اقترف الظُلمَ وضلَّ الطريقْ

والظلم حوضٌ ليس يُسقى به ذو بِنْمَةٍ في كل امرٍ يُطبقْ
فان اردتم فاركبوها بنا فيها من الفتنة ذات البروقْ

الحارث (يخفض غيظه) مهلًا يا جساس. فانَّ ضبيعة قد استدركت سُخطك وغيَّك. ساءها ما أتيت به من مخادعة الهجرس وهو ارقُّ شيء عليها وهي عليك إلبٌ واحدٌ شئتُ انا ام ابيتُ. الحصن بيدها وقد تواطأت عليك مع ابن وائل وهو شاخص الى الحيّ بكتائب تغلب

جساس الحصنُ بيدكم والهجرس مقبلٌ!... (يلتفت) ... ماذا!.. ولِمَ الحصن بنو تغلب... اليَّ اليَّ يا بني شيبان!

(يدخل الهجرس وجنوده)

المشهد السابع

الاشخاص انفسهم والهجرس وجنوده

الجنود عليك عليك ضبيعةُ وتغلب!

الهجرس ويلٌ لكم!

المهلهل مهلًا يا هجرس فاني عقدتُ الصلح مع امير بكر

الهجرس ... لا خوف على الحارث بن عبّاد. هو وليّ نعمتي وقيد وبّاني وكنت منهُ مكان الابن من الاب. انا مصافح لهُ وعاقد معهُ ما عقدتَ. لكنَّ جسّاسًا الخائن لا بُدَّ ان أُريق دمهُ انتقاماً لابي

الحارث قف يا هجرس. رأس جسّاس حرامٌ عليك

الهجرس حرامٌ عليَّ رأس جساس وهو قاتل ابي وقد دسَّ على قتلي!

الحارث قد وهبني الاميرُ (يشير الى المهلهل) دم خالك جساس (الهجرس ينظر الى المهلهل مستفيدًا)

المهلهل نعم وعلى هذا عقدنا الصلح

الهجرس (وحده) لكنَّ ذا ظلمٌ وبغي (الى المهلهل) أنت اميري ووليّ نعمتي وخلفُ وائل عليّ. امرك كلّ ساعة مطاع. حياتي أُضحّي بها في طاعتك. ولكن ان حال دون الطاعة العدلُ وسُنَّةُ الثأر...

الحارث (يقاطعهُ) أنّى يكون الثأرُ عدلًا والعفوُ مُروءةً وصلاح؟ كيف يكون الثأر سُنّةً من الله والله أرحمُ الراحمين

الهجرس انّما الرحمة لمن رحم. الرحمةُ للبشر. وما جسّاسٌ الّا ضارٍ من الجلاميد قُدَّ كبدهُ

جسّاس عجّل عليَّ. فتَصْل السيف ولا نصل الهوان

الهجرس لبّيك لبّيك (يده على سيفه ويد جساس على سيفه)

المهلهل ارعوِ بُنيَّ لا تنتقضنْ شرط اميرك

الهجرس وعدتَ مولاي ما ليس لك ان تعد . وانتَ ابي ودمُهُ لي . تأرهُ إرثٌ اتخذته عنهُ. لي وحدي ان اكفَّ اليد عنهُ. تريدون مصافحتي لبكر . . . فعلتُ. تريدون محالفتي لجساس . . . انا فاعل ايضاً : فوَرُحمي ونصليه وسيفي وغرارَيه وفرسي واذنيه لا يترك الرجلُ قاتلَ ابيهِ وهو ينظر اليهِ

ان تحتَ الاحجار حزماً وعزماً وقتيلًا من الاراقم كهلا

(الى جساس)

ذهب الصلح او تردّوا كليباً او أُذيقَ الندامةَ شيبان ثكلا

ذهب الصُلح او تردّوا كليباً او تنالَ جسّاسُ هوناً وذلّا

جسّاس ذهب الصلح او تردّوا بجيرًا او تذوقَ الزبالَ وِردًا وخلا

الهجرس ذهب الصلح او تردّوا كليباً او تموت جسّاسُ بالسيف قتلا

(يجرد الهجرس سيفه وكذلك جساس)

جساس قد عيل صبري. اليَّ يا هجرس

الهجرس ودّع حياتك

(السلام قبل المبارزة — ضربتان — ثم يدخل جليل)

المشهد الثامن

الاشخاص انفسهم وجليل

جليل اخي! خالي! بحقّ امي! (يقفان) رحماكَ اخي أجزِ السيفَ في عنقي قبل ان تغمده في نحر جساس اخي أمّنا جليلة. ويلاه اما كفى هذه الامَّ التعيسة ما قاستهُ من اهوال الحروب وقد امضّتها حزناً ومزّقت احشاءها هلعاً على اهلها. اما سمعتها تقول:

يا أيها الاقوام ان لُمتِ فلا تعجلي باللوم حتى تسألي
فاذا انتِ تبيَّنتِ الذي يوجب اللومَ فلومي واعذلي
ان تكن اختُ امرئٍ لبستْ على جزعٍ منها عليه فافعلي

الهجرس قد قطَّع قلبي ! (ينكس سيفه)

جليل حنَّت لانثاها وحوش القفار وانت خالي لم تصغِ اليها تقول :
جلَّ عندي فعل جسَّاس فيا حسرتي عمَّا أجلي او ينجلي
فعلُ جسَّاس على وجدي به قاطعٌ ظهري ومُدنٍ اجلي

(يخفض جساس سلاحه)

المهلهل نعم الولد !

الحارث قد اصلح ذات البين

(وكأنَّ كلام المهلهل والحارث اثار ثانيةً بغض المتحاربين فيعودان الى المبارزة فيحول جليل بينهما)

جليل الىَّ يا بني بكر ! الىَّ يا بني تغلب ! ألم تسمعوا عويل جليلة تنشدكم
لو بعينٍ فُقِئتْ عيني سوى أختها فانفقأت لم احفلِ
تحمل البعلُ أذى العين كما تحملُ الامُّ اذى ما تفتلي
ليس من يبكي ليومين كمن انما يبكي ليوم ينجلي
يشتفي المدركُ بالثأر وفي دركي ثأري ثُكل المُثكلِ
اينهُ كان دمي فاحتلبوا دررًا منهُ دمي من أكحلي
انني قاتلهُ مقتولةً ولعلَّ اللهَ ان يرتاح لي

(يرجع جليل الى الوراء — يهجم المتبارزان على بعضهما — يعود جليل فيقف بينهما)

جليل اختي ! خالي ! بحق امي !

الهجرس عفوت عنك يا جساس (يرمي سيفه)

جساس — كما عفت اختي جليلة (يرمي سيفه)

(يُرخى الستار ثم يرفع للنشيد الآتي)

نشيد (في اثنائه يكون بنو بكر ذات اليمين وبنو تغلب ذات اليسار . يتصدر كل فئة منهم امراؤها . وفي القلب جليل بين الحارث وجساس من جهة والمهلهل والهجرس من اخرى وتحت قدميه سيفا المتبارزين) :

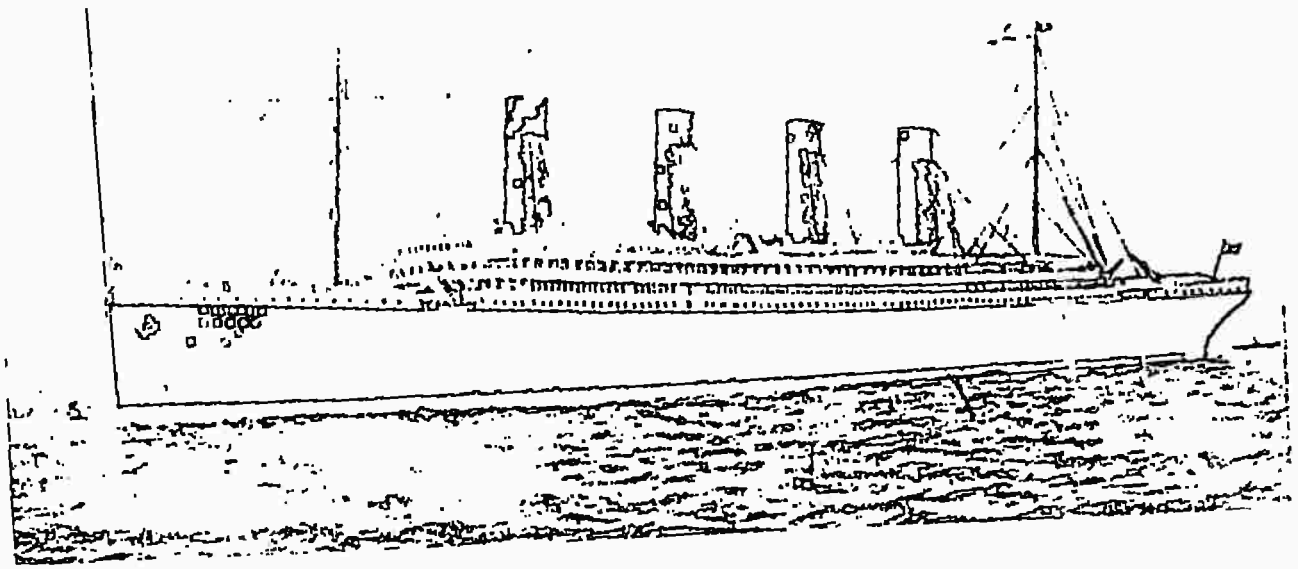

الباخرة « تيتانك »

التي غرقت في ليلة ١٥ نيسان الماضي

بنو بكر قد كان بين جموعنا ضغنٌ وحقدٌ في صدورِ
بنو تغلب فتشاجروا وتحاربوا وتجاوزوا كلَّ الحدودِ
الكلُّ واليوم اصلح بيننا ولدٌ حوى كرمَ الجدودِ
بنو تغلب طوبى لكم يا آل بكرٍ انتمُ سعدُ السعودِ
بنو بكر كلُّم السلام جموعَ تغلبَ بأسُكم بأسُ الاسودِ
الكلّ بشرى لنا حلَّ الهنا في ربعنا رغمَ الحسودِ

(يُرخى الستار) (تمت)

مَصْرَع جبّار البحار

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

قال الشاعر اللاتيني هوراس: لا مراء انَّ اوَّل من حاول ان يخوض عباب المياه ويصارع تيّار البحر كان مذرّعاً بدروعٍ مثلّثة ليقوم في وجه مثاله سلطاناً مطلق الحكم واسع الملك. ولعلَّ لسان حاله كان يردّد بعد وكوبه الاهوال قول الشاعر:

لا اركب البحر اخشى عليَّ منهُ المطلبْ
طين انا وهو ماء والطين في الماء ذائبْ

على انَّ ابن آدم جرد متدام لا يمكنهُ ان يرى في الكون قوّة تناصبهُ الّا تجرَّد لمجاراتها. وكان اوَّل سلاحهِ جذافهُ ثم ابدلهُ بالقلوع وذلّل الارياح لخدمتهِ حتى وجد في البخار ناصراً ظافراً بكل العوائق مزرياً بالانواء. ومنذ ذاك الحين لم تزل الملاحة في ترقّ متواصل سواء كان في تحسين ادواتها المحرّكة زيادةً في سرعتها او في تنظيم السفن وتجهيزها لئلّا ينقصها شيء من اسباب الراحة ثم تنمو رغبة المسافرين في ركوبها. وقد تعدّدت الاكتشافات والمخترعات حتى صار الناس يعدّون الاسفار البحريّة من اشهى المتنزّهات وانفعها ولا يكادون يبالون بأهوالها

وكانَّ في قلب البحر حزازاتٍ لا يزال يضمرها لبني البشر فيشعرهم من وقت الى آخر بحقدهِ الكامن في صدرهِ فتارةً يثور ثائرهُ فيحمل على السُّفن حملات الناقم المستقتل ويحطّم اشدّ المراكب بنيةً وتارةً يبعث البخرتهُ فيلبّد السماء بغيوم كثيفة